عبد الله البردونى
والبصيرة النضالية

كان أبو العلاء المعرى يرد على الذين يسخرون منه بقوله:

ـ أحمد الله على العمى فقد كفانى رؤية الثقلاء

أما بشار بن برد فكان يقول:

عميتُ جنينا والذكاء من العمى

فجئت عجيب الظن للعلم موئلا

ويبدو أن العميان كانوا من أشد الناس تعلقا بالحياة.. ومن أكثر الناس دفاعاً عن أنفسهم.. فلو كان منهم شاعر هجاء صار ذا أنياب وأظفار ولو كان ناثر صار فتاكاً ناقداً لأعدائه.

ووقفتنا اليوم مع أشهر شاعر مكفوف معاصر.. هو الشاعر اليمني عبد الله البردُّونى الذى أسقط كل هجائه على أعداء الوطن وعصبة الظالمين الفاسدين.

ولد البردوني فى عام 1929 فى قرية البردون باليمن.. وأصيب بالجدري فى سن السادسة وصار مكفوفاً منذ صغره.. لكن ذلك لم يثنه عن مواصلة حياته.. فدرس فى زمار وانتقل إلى صنعاء وأكمل دراسته الجامعية فى كلية دار العلوم وتخرج فيها عام 1953.

وصار البردونى أستاذا للآداب فى المدارس.. ثم مسئولاً عن البرامج فى الإذاعة اليمنية.

صدر له إثنى عشر ديوانا منها: لعينى أم بلقيس ـ السفر إلى الأيام الخضر ـ كائنات الشوق للأخر ـ وجوه دخانية فى مرايا الليل ـ زمان بلا نوعية ـ ترجمة رملية لأعراس الغبار.

وله أيضا عدة دراسات أدبية.. وتوفى فى 30 أغسطس عام 1999.

والبردوني شاعر يمتلك الجرأة للتعبير عن رأيه.. ومن ثم كان دائم الاشتباك مع السلطة اليمنية.. حيث سجن فى عهد الإمام أحمد حميد الدين.. وصور ذلك فى قصائده.. وعاش جانبا من حياته منفياً مشرداً.

وهذا هو البردوني يجهر برأيه حين يقول:

يمانيون فى المنفى ومنفيون فى اليمنِ

جنوبيون فى صنعاء شماليون فى عدنِ

خطى أكتوبر انقلبت حزيرانية الكفن

فمن مستعمر غاز إلى مستعمر وطنى

هكذا يعبر البردوني عن حاله وحال الملايين من أمثاله الذين يعيشون غرباء داخل الوطن.. حتى إن حكام بلده صاروا مستعمرين للشعب اليمني.

ويتكرر الإحساس بالغربة لديه فى قصائد عديدة.. ومنها قصيدته (يمني فى بلاد الآخرين) حيث يقول:

من أين أنا؟.. من يدرى أو ليست لى جنسية

نسبى رايات حمرٌ وفتوحات ذهبية

فلما تستغربنى هذي الزمر الخشبية

وأبى ـ قالوا ـ يمنى أمى ـ قالوا ـ يمنيه

لكن أنستني لونى وفمى أيدى الهمجيه

سنوات جوعى عطشى وقيادات تبعيه

وكان لابد أن تتنوع الغربة لأنه يتنقل بها (من منفي إلى منفي) على حد تعبيره.. ويلقى المشاق والصعاب.. ويجاهر بما يشعر به.. وما يضيق به فى هذه التنقلات فيقول:

بلادى من يدىْ طاغٍ إلى أطغى إلى أجفى

ومن سجن إلى سجن ومن منفى إلى منفى

ومن مستعمر بادٍ إلى مستعمر أخفى

ومن وحش إلى وحشين وهى الناقة العجفا

ثم ينهى قصيدته بقوله:

بلادى فى ديار الغير أو فى دارها لهفى

وحتى فى أراضيها تقاسى غربة المنفى

ليس وحده إذن يحس المنفى ويشعر بثقل البعد عن هويته وإنما وطنه أيضا غريب على أرضه.. وتلك صورة مستحدثة ربما لم يسبقه أحد إليها من شعراء العصر.

ويدق على المعنى نفسه فى قصيدته (مواطن بلا وطن) فيقول:

مـــواطـــن بـلا وطنْ لأنـه مـن اليمـــــنْ
تباع أرض شعـــبه وتشـترى بـلا ثـمـــنْ
يبكـــى إذا ســـألته من أين أنت.. أنت مـنْ
لأنـه مـــن لا هـــنا ومـن مـزائد العـلـــن
واليوم لـــم تعـــد له مـزارع ولا سكـــن
ولا ظـــلال حـائط ولا بقايـا مـــن فـــنن

ونلاحظ أن البردوني يستخدم فى شعره الشكل العمـودي.. لكنـه هنـا يلجأ إلى البساطة واختيار البحر المناسب والقافية المناسبة أيضا.. ولا يحـس صعوبة وهو يكتب هذا الشكل.. وهذا أمر عرف بـه الـبردوني وتميـز عـن غيره من شعراء العمود.

ويصف لنا البردوني موقفاً طريفاً.. فقد قبض عليه وجلس أمام المحقق وها هو يحكى لنا هذا اللقاء الغريب فى قـصيدته (سـندباد يمنـي فى مقعـد التحقيق) فيقول:

كـما شـئت فـتش أيـن أخفـى حقـائبى
أتـسألنى: مـن أنـت؟.. أعـرف واجبـى
أجب.. لا تحاول عمرك.. الاسم كـاملاً
ثلاثـون تقريبـا.. (مثنـى الـشواجبى)
نعم.. أين كنت الأمس.. كنت بمرقدى
وجمجمتى فى السجن فى الـسوق شـاربى

رحلــتَ إذن.. فــيما الرحيــل.. أظنــه
جديــدا.. أنــا فيــه طريقــى وصــاحبى
جــوازا ســياحيا حملــت؟.. جنــازة
حملتُ بجلـدى.. فـوق أيـدى رواسـبى
تحــديتَ بــالأمس الحكومــة.. مجــرمٌ
رهنــتُ لــدى الخبــاز أمــس جــواربى
مــن الكاتــب الأدنــى إليــك؟.. ذكرتــهُ
لديــه ـ كــما يبــدو ـ كتــابى وكــاتبى
قــرأتَ ـ كــما يحكــون عنــك ـ قــصائداً
مهربــةً.. بــل كنــتُ أولَ هــاربِ
أما كنتَ يوماً طالبـا؟.. كنـتُ يـا أخـى
وقــد كــان أســتاذَ التلاميــذ طــالبى
ومــاذا عــن الثــوار؟ حانــا عــرفتَهم
نعــمْ.. حاسـبوا عنـى تغـدَّوا بجـانبى
ومــاذا تحــدثتم؟ طلبــتُ ســجارةً
أظــن وكبريتــاً.. بــدوا مــن أقــاربى
شــكونا غــلاء الخبــز قلنــا ســتنجلى
ذكرنــا قلــيلاً مــوت (ســعدان مــاربي)

لـدينا ملـفّ عنـك.. شـكرا لأنكـم

تـصونون مـا أهملتُـه مـن تجـاربى

لقـد كنـتَ أميـا حمـاراً وفجـأة

ظهـرتَ أديبـاً.. مـذ طبخـتم مـآربى

خـذُوه.. خُـذونى لـن تزيـدوا مرارتـى

دعُـوه.. دعـونى.. لـن تزيـدوا متـاعبى

إن قدرة الشاعر هنا على تصوير الحوار بـدون أن يـشير إلى مـن يـسأل ومن يجيب قدرة عجيبة حقا.. وكفى أن يضع علامـات الأعـراب لنعـرف من السائل ومن المجيب.

وكما نرى فالشاعر هنا يصور جهل السلطة وعنفوانها وإصرارهـا عـلى النبش فى حياة المحقق معه حتى تستطيع السلطة أن تلصق به التهمة.

وهو موقف كما نرى يـصعب كتابتـه شـعراً لكـن الـبردوني ـ ببـساطة وعفوية ـ استطاع أن يصوره لنا هكذا.

ولنستمع إليه فى قصيدة (شاعر وطنه فى الغربة) وهو يلوم الوطن عـلى سوء الظن به فيقول:

ألأنـــى يـــا موطـــنى أتجـــزأ

قطعـاً مـــن هـــواك فى كـل رقعـهْ

نعتونـــى مخـــرباً أنـــت تـــدرى

أنـــها لـــن تكـــون آخـــر خُدعـهْ

عـــرفوا أنهـــم أُدينـــوا فـــسَنّوا

للجـــواسيس تهمـــة الغـــير شرعـــهْ

عنـــدما تُفـــسَـــدُ الظـــروفُ تـــسمى

كـــل ذكـــرى جميلـــة ســـوءَ ســـمعهْ

يظلـــم الزهـــرُ فى الظـــلام ويبـــدو

مثـــل أصـــفى العيـــون تحـــت الأشـــعه

إن البيت الأخير يجئ بصورة بصرية لا يشعر بها سوى المبصرون.. وهو هنا يذكرنا ببشار المكفوف الذى قال:

يا منظرا حسنا رأيته فى وجه جارية فديته

ويؤكد ذلك قوة ذكاء وبصيرة البردوني واهتمامه بالألوان والأشكال برغم كف بصره.

ولأن الشاعر ضيف دائم على السجون وأقسام الشرطة فإن طرق التحقيق معه تتنوع أيضا من سجن إلى سجن ومن قسم إلى قسم.. وها هو يسوق لنا تحقيقاً أخر فى قصيدته (المقبوض عليه ثانيا) يقول فيها:

أتقول لى غلطان؟.. لست بمركبى

من كم تركت.. أتستثير تشككى

هذا اســمك الحركـى كــم سـجلتَه

مــا عــدتُ أعرفــه نــسيتُ تحركــى

قــل لى.. أتــذكر هــا هنــا زنزانــة؟

كانــت عــلى وجعــى تقــوم وتتكــى

إن قمت أدمىْ سقفَ رأسـى سـقفُها

وإذا بركْــتُ بهــا أقــضّت مبركــى

وهكذا ينبش المحقق ويدور حول حياة الشاعر حتى يوقعه فى الخطأ ويدخله السجن.

والنماذج كثيرة فى شعر البردوني التى تحكى عن تجربته المتكررة فى السجن والنفى والمعتقل إلى جانب قصائده الوطنية المتمردة على الواقع الذى يعيشه الشاعر.

وهو فى قصائده الوطنية يعشق وطنه.. ويجعله الحبيب والمعشوق والحلم والأمل جميعاً.. ففي قصيدته (إلا أنا وبلادى) يقول:

تــسلياتى كمــــوجعاتى وزادى

مثــل جــوعى وهجعتــى كــسهادى

وكئوســى مريــرة مثــل صــحوى

واجتماعــى بــإخوتى كــانفرادى

يـا بـلادى خـذى الربـى والـسواقى

فى ضـــلوعى تنهـــدات شـــوادى

إنـــما مـــن أنـــا وليـــس بكفـــى

مـــدفع والـــتراب بعـــض امتـــدادى

العـــصافير فى ضـــلوعى جيـــاع

والـــدوالى والقمـــح فى كـــل وادى

يـــا نـــدى.. يـــا حنـــان أم الـــدوالى:

وبرغمـــى يجيـــب مـــن لا أنـــادى

هـــذه كـــلها بـــلادى وفيهـــا

كـــل شـــئ إلا أنـــا وبـــلادى

الوطن لديه إذن حلم بعيد.. لكنه يحب أن يسعى إليه برغم كل شئ لأنه موطنه.. وسواقيه فى ضلوعه.. وسلواه فى دروبه.. فلماذا لا يشعر به.. لأن وطنه للأسف ليس بين يديه ولهذا فإنه سيظل مطالباً به طوال عمره.

لقد نال البردوني حظا واسعاً من الشهرة.. وتقلد أوسمة كثيرة كوسام الأدب والفنون فى عدن.. وجائزة مهرجان أبى تمام بالموصل فى العراق.. وجائزة شوقي وحافظ فى القاهرة.. وفى عام 1982 أصدرت الأمم المتحدة عملة فضية عليها صورته لكونه معاقاً تحدى العجز.